

التحرير والتنوير

في الموطأ أن عمر بن الخطاب " B ه " قال في خطبة خطبها في آخر عمره : " أيها الناس قد سنت لكم السنن وفرضت لكم الفرائض وتركتم على الواضحة إلا أن تضلوا بالناس يمينا وشمالا " وضرب بإحدى يديه على الأخرى . " لعله ضرب بيده اليسرى على يده اليمنى الممسكة بالسيف أو العصا في حال الخطبة " . وهذا الضرب علامة على أنه ليس وراء ما ذكر مطلب للناس في حكم لم يسبق له بيان في الشريعة .

وقدم ذكر علمه (بمن ضل عن سبيله) على ذكر علمه (بالمهتدين) لأن المقام تعريض بالوعيد للضالين ولأن التخلية مقدمة على التحلية فالوعيد مقدم على الوعد . (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين [126]) عطف على جملة (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة) أي إن كان المقام مقام الدعوة فلتكن دعوتك إياهم كما وصفنا وإن كنتم أيها المؤمنون معاقبين المشركين على ما نالكم من أذاهم فعاقبوهم بالعدل لا بتجاوز حد ما لقيتم منهم .

فهذه الآية متصلة بما قبلها أتم اتصال وحسبك وجود العاطف فيها . وهذا تدرج في رتب المعاملة من معاملة الذين يدعون ويوعظون إلى معاملة الذين يجادلون ثم إلى معاملة الذين يجازون على أفعالهم . وبذلك حصل حسن الترتيب في أسلوب الكلام .

وهذا مختار النحاس وابن عطية وفخر الدين وبذلك يترجح كون هذه الآية مكية مع سوابقها ابتداء من الآية الحادية والأربعين وهو قول جابر بن زيد كما تقدم في أول السورة . واختار ابن عطية أن هذه الآية مكية .

ويجوز أن تكون نزلت في قصة التمثيل بحمزة يوم أحد وهو مروي بحديث ضعيف للطبراني . ولعله اشتبه على الرواة تذكر النبي A الآية حين توعد المشركين بأن يمثل بسبعين منهم إن أظفروا بهم .

والخطاب للمؤمنين ويدخل فيه النبي A .

والمعاقبة : الجزاء على فعل السوء بما يسوء فاعل السوء .

معنى في (عوقبتم) استعمل . (عاقبتم) ل مشاكلة (عوقبتم ما بمثل) فقله A E عوملتم به لوقوعه بعد فعل (عاقبتم) فهو استعارة وجه شبهها هو المشاكلة . ويجوز أن يكون (عوقبتم) حقيقة لأن ما يلقونه من الأذى من المشركين قصدوا به عقابهم على مفارقة دين قومهم وعلى شتم أبنائهم وتسفيه آبائهم .

والأمر في قوله (فعاقبوا) للوجوب باعتبار متعلقه وهو قوله (بمثل ما عوقبتم به) فإن

عدم التجاوز في العقوبة واجب .

وفي هذه الآية إيماء إلى أن الله يظهر المسلمين على المشركين ويجعلهم في قبضتهم فلعل بعض الذين فتنهم المشركون يبعثه الحنق على الإفراط في العقاب . فهي ناطرة إلى قوله (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا) .

ورغبتهم في الصبر على الأذى أي بالإعراض عن أذى المشركين وبالعفو عنه لأنه أجلب لقلوب الأعداء فوصف بأنه خير أي خير من الأخذ بالعقوبة كقوله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) وقوله (وجزاء سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) .

وضمير الغائب عائد إلى الصبر المأخوذ من فعل (صبرتم) كما في قوله تعالى (اعدلوا هو أقرب للتقوى) .

وأكد كون الصبر خيرا " بلام القسم " زيادة في الحث عليه .

وعبر عنهم بالصابرين إظهار في مقام الإضمار لزيادة التنويه بصفة الصابرين أي الصبر خبر لجنس الصابرين .

(واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون [127]) خص النبي A بالأمر بالصبر للإشارة إلى أن مقامه أعلى فهو بالتزام الصبر أولى أخذا بالعزيمة بعد أن رخص لهم في المعاقبة .

وجملة (وما صبرك إلا بالله) معترضة بين المتعاطفات أي وما يحصل صبرك إلا بتوفيق الله إياك . وفي هذا إشارة إلى أن صبر النبي A عظيم لأنه لقي من أذى المشركين أشد مما لقيه عموم المسلمين . فصبره ليس كالمعتاد لذلك كان حصوله بإعانة من الله .

وحذره من الحزن عليهم إن لم يؤمنوا كقوله (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين)